

معرفة النفس ومحاسبتها



يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن معرفة النفس وحسابها: «أَكْبَسَ الْكَيْسَ سَيِّئًا مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ - لِيَعْرِفَ كُلَّ دَقَائِقِ نَفْسِهِ وَكُلِّ أَفْكَارِهِ وَأَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَعِلَاقَاتِهِ؛ هَلْ هِيَ فِي الْخَطِّ الْمُسْتَقِيمِ أَوْ فِي الْخَطِّ الْمُنْحَرِفِ، هَلْ هُوَ مِنَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ أَوْ هُوَ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ - وَعَمَلٌ لَمَّا بَعْدَ الْمَوْتِ - أَنْ يَعْمَلَ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ - وَأَحْمَقُ الْحَمَقِ مَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَتَمَذَّى عَلَى الْإِيمَانِ»، هذا الذي يتمدُّ إلى الجنة ورضى الله من دون عمل أو تحمل للمسؤولية. وعن الإمام علي (عليه السلام) أنه قال: «حَاسَبُوا أَنْفُسَكُمْ بِأَعْمَالِهَا - نَحْنُ عَادَةٌ نَحَاسِبُ غَيْرَنَا لِأَنْ نَحْنُ دَائِمًا نَنْظُرُ إِلَى الْآخِرِينَ وَلَا نَنْظُرُ إِلَى أَنْفُسِنَا، مَعَ أَنْ الْإِنْسَانَ لَيْسَ مَسْئُولًا عَنِ الْآخِرِينَ، بَلْ هُوَ مَسْئُولٌ عَنْ نَفْسِهِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَحَاسِبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَحَاسِبَ الْآخِرِينَ - وَطَالِبُوهَا بِأَدَاءِ الْمَفْرُوضِ عَلَيْهَا - فَقَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَصِيَامَ شَهْرِ رَمَضَانَ إِذَا كُنْتَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، وَالْحَجَّ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْفَرَائِضِ الَّتِي أَوْجَبَهَا عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَطَالَِبَ نَفْسَكَ بِهَذِهِ الْفَرَائِضِ بَأَنْ تُوَدِّعَهَا وَلَا تَفْرُطَ فِيهَا أَوْ تَسْتَهْتِرَ بِهَا - وَالْأَخْذُ مِنْ فَنَائِهَا لِبِقَائِهَا، وَتَزَوُّ دَوًا - وَخَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى - وَتَاهُجُوا قَبْلَ أَنْ تُبْعَثُوا». وأيضاً عن الإمام علي (عليه السلام): «مَا أَحَقُّ الْإِنْسَانَ أَنْ تَكُونَ لَهُ سَاعَةٌ - وَقَدْ مَاتَ مِنَ الْأَوْقَاتِ - لَا يَشْغَلُهُ شَاغِلٌ - بَحَيْثُ لَا يَلْهَوُ عَنْ هَذِهِ السَّاعَةِ بِأَيِّ شَيْءٍ - يَحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، فَيَنْظُرُ فِيهَا أَكْتَسَبَ لَهَا وَعَلَيْهَا، فِي لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا»، وَرَبِحَ الْأَعْمَالَ أَكْبَرَ مِنْ رِبْحِ الْمَالِ، وَخَسِرَ الْأَعْمَالَ أَكْبَرَ مِنْ خَسَارَةِ الْمَالِ.

وورد عن الإمام الصادق (عليه السلام): «كَانَ فِيمَا وَعَظَ بِهِ لِقَمَانَ ابْنِهِ: اعْلَمْ أَنَّكَ سَتُسْأَلُ غَدًا إِذَا وَقَفْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَرْبَعٍ: شَبَابِكَ فِيمَا أَبْلَيْتَهُ - إِنَّهُ إِذَا أَعْطَاكَ الشَّبَابَ، وَالشَّبَابَ يَمْتَلِكُ مَرَجَةَ الْعُمَرِ الَّذِي يَمْلِكُ فِيهِ الْإِنْسَانُ الْقُوَّةَ الَّتِي تَعِينُهُ عَلَى أَنْ يَقُومَ بِأَكْثَرِ الْأَعْمَالِ جِهَادًا - وَعَمْرُكَ فِيمَا أَفْنَيْتَهُ - هَلْ أَفْنَيْتَهُ بِالصَّالِحَاتِ أَمْ بِالطَّالِحَاتِ، بِالْخَيْرِ أَمْ بِالشَّرِّ، بِمَا يَرْضِيهِ أَمْ بِمَا يَغْضِبُهُ - وَمَالُكَ مِمَّا اكْتَسَبْتَهُ - هَلْ أَخَذْتَ مَالَكَ مِنْ مَصْدَرٍ حَلَالٍ أَوْ مِنْ مَصْدَرٍ حَرَامٍ، لِأَنَّ الْبَعْضَ يُعْتَبَرُ أَنَّ الْحَلَالَ مَا جَلَّ بِالْيَدِ بِأَيِّ طَرِيقٍ وَصَلَ إِلَى يَدِهِ! - وَفِيمَا أَنْفَقْتَهُ - هَلْ أَنْفَقْتَ مَالَكَ فِي الْحَلَالِ أَوْ فِي الْحَرَامِ - فَتَاهَبْ لَذَلِكَ - وَهَذِهِ الْأَسْئَلَةُ هِيَ امْتِحَانُ أَمَامِ اللهِ، فَكَمَا أَنَّكَ تَهَيِّئُ نَفْسَكَ لِلْامْتِحَانِ فِي الدُّنْيَا، عَلَيْكَ أَنْ تَهَيِّئَهَا لِهَذَا الْامْتِحَانِ فِي الْآخِرَةِ - وَأَعِدَّ لَهُ جَوَابًا.»

ويعلمنا الإمام عليّ (عليه السلام) عن كيفية محاسبة النفس فيقول: «إذا أصبح ثمّ أمسى رجع إلى نفسه وقال: يا نفسُ، إنّ هذا يومٌ مضى عليك لا يعود إليك أبداً، وإني سأسألُك عنه فيما أفنيتَه، فما الذي عملتَ فيه؟ أذكرتَ الله أم حمدتَه، أفضيتَ حقَّ أخٍ مؤمنٍ؟ أنفستَ عنه كربتَه؟ أحفظتَه بظهر الغيب في أهله وولده؟ أحفظتَه بعد الموت في مَخْلَافَتِه؟ أكففتَ عن غيبة أخٍ مؤمنٍ بفضل جاهِك؟ أأعنتَ مسلماً؟ ما الذي صنعتَ فيه؟ فيذكر ما كان منها؛ فإن ذكر أنَّهُ جرى منه خيرٌ حمد الله عزَّ وجلَّ وكبَّره على توفيقه، وإن ذكر معصيةً أو تقصيراً استغفر الله عزَّ وجلَّ وعزم على ترك معاودته». على الإنسان أن يدقق في أعماله، ليكون كلُّ يومٍ عنده يوم حساب، ليأتي إلى ربه وقد استطاع أن يركبَ عمله في خطئٍ رضى الله تعالى. وقد حدثنا الله عن بعض الناس الذين يقفون يوم القيامة، ويؤتى بكتابهم فيقولون: (يَا وَيْلَتَنَّا مَا لَآلِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّهُمْ رَبُّكَ أَحَدًا) (الكهف/ 49).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): «مَنْ نظَرَ في عيبِ غيره اشتغل عن عيبِ نفسه»، النفس الأمّارة بالسوء، والتي لم يفكّر أحدنا أن يجلس معها ليسألها عن نقاط ضعفها وقوتها، وليتساءل معها: كم كذبت؟ كم غيبة؟ كم ظلماً؟ كم شتيمة؟ لنكن أصدقاء أنفسنا، فصدِّقك من صدِّقك لا من صدِّقك. أن ننهي هذه النفوس عما يضرُّها، ونرشدنا إلى ما ينفعها: «يا نفسُ، ما نهى الله عنه فهو مما يفسد حياة الإنسان في دُنْيَاهِ وآخِرَتِهِ، وأمّا ما أمرَ الله به، فهو مما يصلح حياة الإنسان في دُنْيَاهِ وآخِرَتِهِ».

فلنفكّر بهذه الطريقة، ونحن في ضيافة الله، حتى نخلص من شتّى أمورنا، وحساب النفس ليس أمراً سهلاً، إنّه يتحرّك في عالم الشهوة والمزاج: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) (النازعات/ 40-41)، فالإنسان مدعوٌ لفهم نفسه وحسابها ومحاكمتها ومجاهدتها، «اجعل نفسك عدوًّا تجاهده، لأنّها أمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي».

هذا الشهر هو شهرُ المراقبة، أن تراقب نفسك لتفهمها، وشهر المحاسبة، أن تحاسب نفسك في كلِّ عمل، ثم إذا حاسبتها فهناك المحاكمة بأن تحكم لها وعليها، وهناك المجاهدة بأن تجاهد نفسك فتمنعها عن الشرِّ وتوجّهها إلى الخير. لذلك علينا أن نخرج من هذا الشهر بعقلٍ جديد ليس فيه إلا الحق، وقلب جديد ليس فيه إلا المحبة والخير، وحركة جديدة ليس فيها إلا ما يرضي الله، ولا شيء إلا الله تعالى.